حديقة المقتطف

الحركة الأدبية

في سورية ولبنان

لالياس ابو شبكة

الحركة الأدبية

في سورية ولبنان

رضا توفيق وعبد الحق حامد

طالع الأدباء بشوق الفصول التي نشرها الدكتور اسماعيل أدهم في «المقتطف» عن الاستاذ خليل مطران ، شاعر العربية الابداعي ، كما سماه ، وكان الدكتور ادهم قد عقد في مجلة « الحديث » الحلبية فصلاً عن الشاعر التركي حامد الذي توفي لسنتين خلت ، عرض فيه — استناداً الى ما كتبهُ الدكتور رضا توفيق في كتابٍ لهُ عن حامد — للعوامل الأدبية التي تأثر بها الشاعر التركي وفي جملتها كورنيل وشكسبير وفيكتور هيغو . وكثيراً ما كان الدكتور رضا توفيق يحدثني عن صديقه حامد ولا يكتفي انهُ تبنّى طائفة لا تحصى من أفكار الشعراء الفرنج على أنهُ طبعها بطابع من نفسه شأن جوتي في « الديوان الشرقي » وكورنيل نفسه في « السيد » . وفيما نحن نتحدث عن مقال الدكتور أدهم في حامد قصَّ عليَّ الدكتور رضا توفيق قصة اكتشافهِ مصدراً غرف منهُ شاعر « المقبرة » حصةً كبيرة من أفكاره . وبما أن صديقي نزيل لبنان اليوم لم يذكر هذه القصة في كتابهِ الضخم الذي نقد فيه شعر حامد فقد رأيت أن أسردها بايجاز تفكهة للقراء

كان الدكتور رضا توفيق وحامد صديقين حميمين وكان كلٌّ منهما يحترم الآخر ويجلّه وكثيراً ما كانا يصرفان الليالي بين الخمرة والأدب . وفي احدى الليالي قام الشاعران بجولة على ضفة البوسفور ، وبعد أن نالا من الخمرة حتى اكتفيا دعا حامد صديقه رضا توفيق الى تمضية الليل في بيتهِ . وكأن الخمرة أيقظت في نفس الشاعر الفيلسوف رضا شوقاً ملحّاً الى تصفّح ما يطبع الليل على صحائف البوسفور فاستلقى على سريرهِ وأطلق عينيهِ في الابعاد . وهو على ما بهِ شعر بجسم تحت الوسادة فرفعها فرأى كتاب « الله » لفيكتور هيغو . وكان حامد قد أحلَّ صديقه رضا في مخدعهِ . فأخذ هذا الأخير يتصفح الكتاب فاستوقفت انتباهه علامات موضوعة بجانب مقاطع من الشعر عرف الدكتور رضا أن صديقه تبنّى معانيها في شعره .

ومنذ ذلك الحين راح يتعقبهُ فتبين لهُ أن حامد انتحل هيغو ولامرتين وكوريل وشكسبير وغيرهم

الانتحال والسرقة الادبية

لا أجد بدّاً في هذا الصدد من ذكر الغارة الهوجاء التي شنها اخيراً بعض الادباء اللبنانيين على بعض ادباء لبنان ومصر متهماً هؤلاء الاخيرين بالسرقة والانتحال. فقد حلا لبعض النقاد ان يحدث حركة أدبية غير مألوفة فراح ينبش بطون الكتب والدواوين لعله يظفر بسرقة ادبية يوقع بها الواقعة. ويظهر أن هذه الشهوة الادبية تفاقم امرها حتى اصبحت مرضاً في بعض النفوس وحتى خيل الى البعض أن ما ينتجه الشعراء والكتّاب والمشهور منهم بوجه خاص «يجب» ان يكون منحولاً أو مسروقاً او مستوحى من الغير على الاقل. ويكفي ان يكون المنقود قد جاء بكلمة او كلمتين ورد مثلهما في عبارة فرنجية ليعد سارقاً . . . فقول الشاعر اللبناني مثلاً:

وَوجهك الشاحب الجذاب ترهبني ألوانه ينتشي فوقها اللهبُ
مازلت تقتصين الليل في جبدٍ حتى تجمد في اجفانك التعب

مسروق من قول الشاعر الفرنسي:

Et semblable à la mort, seulement quelques pleurs
Montraient encore sa vie en montrant ses douleurs.

فان يكن بين هذين القولين شبه — وليس بينهما أي شبه — فماذا تراه يكون بين قول لامرتين في بحيرته: «ذات مساء، أتذكرين؟ كنا نعوم بسكون. ولم يكن يسمع في الابعاد، على الماء وتحت السماء إلا دويّ المجذافين الضاربين بايقاع امواجك الموسيقية» وقول روسو في «الويز الجديدة» قبل سنوات: «كنا صامتين صمتاً عميقاً، وكان دويّ المجاذيف ذات الايقاع المتوازن يهيج في قلبي الشوق الى الاحلام» او قول شاتوبريان في اتالا: «كانت أتالا تنشد فلا يقاطع شكاياتها الا دوي زورقنا على الماء؟»

او بين قول أبي نواس:

تضحكين لاهية والمحب ينتحب

وقول ابن زيدون:

تضحك في الحب وأبكي أنا — الله فيما بيننا حاكم

او بين قول ابن خفاجة :

يا أهل اندلس لله دركم — ماء وظل وانهار وأشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم — ولو تخيرت هذي كنت أختار

وقول شوقي :

خلقت لبنان جنات النعيم وما — نبئت أن طريق الخلد لبنان
حتى انحدرت الى فيحاء وارفة — فيها الندى وبها طل وريحان

او بين قول ابن زيدون :

عيرتمونا بأن قد صار يخلفنا — فيمن نحب وما في ذاك من عار
أكل شهي أصبنا من أطايبه — بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفار

وقول ذلك الشاعر الفرنسي في قصيدته « الى امرأة » :

S'il reste encore du vin les laquais le boiront

وقد نقل الاستاذ بشارة الخوري هذه القصيدة الى العربية ومنها :

ولمة كانت لنا عندما — أفرغت كأسي لا كالزاعمين
فضلة الكأس التي عفتها — تركتها للخدم الساقطين

إنه لمن الخرق الفاضح بل من الظلم أن نعمد باسم « تطهير الادب » الى انكارنا على كاتب أو شاعر صفحة من حياته وتنبيها الى من لا عهد له بها . ويؤسفني أن أقول إن مرض تسريق الادباء ما شاع في بلد كما شاع في لبنان وان هذا المرض لمن نواقص الحركة الأدبية في هذا البلد . واكبر الظن ان السبب في هذه الحملة الثائرة يرجع الى ماض كان بعض الادباء والشعراء يغيرون فيه على تركات الغير من ادباء الفرنجة فيغرفون منها ما يلزمهم أو ما يرون فيه غذاء لأدبهم ، ولم يكن الاتصال بأدب الفرنجة كما هو اليوم فكانت السرقة تخفى على الكثيرين ، وكثيراً ما كان الشاعر أو الكاتب ينقل قصيدة برمتها أو مقالاً برمته وينسبه الى قلمه . وكأن نقاد الشباب من القافلة التي لم تدرك الادب قبل الحرب الكبرى راحوا يميطون اللثام عن تركة الفرنجة في آثار الأدباء اللبنانيين الذين أدركوا العهدين فأورث اسراف بعضهم أحقاداً في نفوس اولئك الاخيرين انتقلت

الى مشابهم بشكل حاذق ، وسرعان ما تحوّل ردّ الفعل في أقلام هؤلاء الكاتبين الى انتقام عنيف يهزّ لأجله البيان ويسرف التضليل

ابن زيدون

أصدرت مطابع دمشق أخيراً درساً في الشاعر الاندلسي «ابن زيدون» للاديب السوري الاستاذ «نهاد رفعة عناية» ، حاول فيه الكاتب أن يثبت أن شعراء الاندلس وكتابها كانوا عرباً في تفكيرهم واحساسهم، على انهم مع ما اقتبسوا من الآداب اللاتينية عن القوط الاسبان ظلوا يأتمون بالشرق ويقلدون أدباءه في شعرهم ونثرهم . وبعد ان أورد الكاتب الادلة الكافية على ميزة ابن زيدون الغزلية وأحله المحل الاول بين شعراء الاندلس انتقل الى ميزته الوصفية فلم يجد فيها تلك القيمة التي لغزله وخلص الى ان الشاعر كان يتكلف الوصف — مع ان ادباء الاندلس كانوا يلقبون ابن زيدون بـ « بحتري المغرب » . وقد قابل الكاتب بين البحتري وابن زيدون وخلص الى ان وجه الشبه بين الشاعرين هو قوة الطبع والسلاسة والجزالة ورقة الغزل ، على ان البحتري ان كان أطبع على الشعر من ابن زيدون فهو لا يبلغ شأوه في الثقافة ولا يدانيه في شدة العاطفة

ثورة العاطفة

وأصدر الشاعر السوري «الاستاذ حامد حسن» مجموعة شعرية عنوانها «ثورة العاطفة» وأول ما يواجهك فيها احساس عنيف في تعبير يختلف جرسه باختلاف حالة الشاعر ، فاذا كان الشاعر صادقاً ماشى الجرس الحس وجاراه :

... كلما ناجيتُ طهري والتي ... قمت في مضجعي حلماً عربيا
تهم العين به حتى غدا ... رغبة صارخة في مقلتيا
ترعف الاثم ، فلو في خاطري ... مرّت التقوى لارداها بغيا

واذا لم يكن صادقاً سفل الجرس مع الحس واضطرب حتى الوزن :

نصعد قلبينا أضحيتين ... بمذبح طهر الهوى والجمال

على أني لم أقع في هذه المجموعة على قصيدة لا تتخللها أبيات رائعة صارخة في صدقها ، بليغة في أدائها

تعالي لنسبح في عالم ، ... بشتى رغائبه يزخر

بندرانه يستحم الضياء وفوق خمائله ينثر
مراقبه من دونهن الجحيم تثور ، وفي دربه عثر
ومهوى سحيق على جانبيه تماحى على الوهم لا يعبر

ويقف الشاعر في مجمل قصائده موقف الخاطيء الراغب في التخلص من جحيمه ، فهو يحلم بالفردوس الثاني ، وقدمه في النار

والأثم مطهرة النفوس ولا أرى ما الفرق بين الحان والمحراب
...والخمر إن جنت على شفة امرىء طمعاً فأيُّ الذنب للأكواب ؟

وقد تكون أجمل قصائد هذه المجموعة قصيدة «امرىء القيس والعذارى» ولا شك في أن الشاعر وجد في موضوع هذه الاسطورة غذاء لخياله الأحمر وألواناً لعاطفته الصاخبة . ولا أعلم على من تتلمذ هذا الشاعر الشاب إذ يبدو لي أن في شعره أثراً من شعر القير ولكنه مطبوع بطابع خاص لا يحق لأحد أن يقاضيه اياه

ديوان «الامواج»

وأصدرت مطابع بيروت طبعة جديدة من ديوان « الامواج » للشاعر أحمد الصافي النجفي ، والصافي — نزيل بيروت منذ أشهر — من أصدق شعراء الجيل ، وقد يكون هو والشاعر الجواهري أشهر من في العراق وما تكلم في الرسالة المقبلة عن النهضة القائمة في الاقطار العربية الشقيقة . ولا أعتقد أن في الشعراء من ينطبق شعره على حياته كالصافي ، فهذا الشاعر المستقيم كالاسطوانة ، المحتفظ بالعباءة والكوفية والعقال والنعل ، لا يعطيك إلاّ شعراً سمقياً كجسده وخلقه ، ساذجاً ككفه وعباءته ، لا أثر عليه للزخرف والطلاء ، فهو يرسله كما يجيش في نفسه الشاعرة على ما تقتضيه السليقة والطبع فيأتي صافياً نقيّاً لا تكلف في أدائه . وربما كانت أظهر نواحي الشاعر في ديوانه « الامواج » هي ناحية الألم العميق ، والألم كان وما يزال غذاء الشعراء ، وهو على ابتذاله في نفوسهم ما يزال جديداً لأنه غلاف النفوس الحساسة او هو شطر منها ، والألم اله الشعراء على الارض اذا لم يجدوه في ذاتيتهم عمدوا الى البحث عنه في كل ما يحيط ، وقد يهتدون اليه على وجه فلاح :

في الليل يثلك مثل دهري مظلم ما فيه لا شمعٌ ولا مصباحُ
بغضون وجهك للشقة أسطر وعلى جبينك للشقا ألواح

سرّ ببؤسك فاضحٌ لذوي الغنى — لو أن سرك في البلاد يباح

وهذا البيت الاخير لا ينطبق على الفلاح فحسب بل على من طحنته بلاهة الاقدار أو سيطرة الاغنياء وعكر عرق الحياة ، ولقد شاء الشاعرية هذا ان لا يذل الباحثين من أبناء الأمة فلم يدع الفلاح يبوح ببؤسه لئلا يعرضه لشماتة الاغنياء وهزئهم

قلت ان الصافي صادق في شعره فالشاعرية الصادقة ظاهرة في ديوانه ، في أمله ويأسه ، وحماسته الساذجة ، وبجونه اللطيف وسخريته البريئة ، ودعابته الحلوة وهي ظاهرة في جميع قصائده ، وقد استثنى بعضاً منها كقصيدة « اليتيم » مثلاً ، فهذه القصيدة لم يوفق بها الشاعر لا في المعنى ولا المبنى وقد تكون « اليتيم » في عداد القصائد القليلة التي لم ينبض فيها قلب الشاعر ، في حين ان الموضوع ادنى الى شيء من سواه ، فهو من أبرز موضوعات الالم وربما كان السبب في ذلك ان صاحب « الامواج » كتب قصيدة « اليتيم » عقب قراءته قصيدة « اليتيم في العيد » او « أم اليتيم للرصافي » ولو انه شهد بأم عينه يتيماً بائساً فرق له او توجع — كما هي عادته في كل ما ينظم — لما أعياه الشعور عن ان ينظم في اليتيم قصيدة رائعة

وكنت اود بالشاعر ان يدرج مثل هذه القصيدة الى جنب قصائد جميلة تموج بالرقة والموسيقى كقصيدة « الليل والنجوم » التي لا تخلو من السحر قال :

كأن ساقط النجوم أرقمٌ — قد ساب في بحر الظلام وانطلقْ
او سطر نورٍ خطَّ في لوح الدجى — أو هو ميزاب من الضوء انهرقْ
او هو عفريت سما الى السما — ليدخل الخلد فخرَّ واحترقْ
أو رمح نورٍ طعن الظلام أو — نهر من النار في الليل اندفقْ

ولقد تطفّه يصعد في هذه الابيات الى الزخرفة والطلي ، على انك اذا انعمت الفكر فيها لا تجد اثراً للزخرف والتلون بل تجد معادن لونتها الطبيعة من تلقائها

وكانت مطابع دمشق قد اصدرت مجموعة شعرية للرصافي عنوانها « أشعة ملونة » بلغ فيها الشاعر حد الابداع . ولا نزاع في ان الابداع الشعري لا يأتي الا عن طريق الصدق ، ويكفي شاعراً كالصافي أن يغمس قلمه بدمه ليكون مبدعاً ، فقطرة الدم اصبحت نادرة في الشعر بحيث انك اذا نشقتها في بيت لمست فيه شيئاً جديداً . . .

بيروت — الياس ابو شبكة